الفصل الأول

هل العولمة قَدَرٌ حتميٌّ ؟!

يرى الدكتور عبد الإله بلقزيز أن العولمة الثقافية هي :

(فعل اغتصاب ثقافي وعدوان رمزي على سائر الثقافات ، وبالتالي فهي رديف الاختراق الذي يجري بالعنف ـ المسلح بالتقانة ـ فيهدد سيادة الثقافة في سائر المجتمعات التي تبلغها العولمة) .

وبالتالي فهي : (السيطرة الثقافية الغربية على سائر الثقافات ، بواسطة استثمار مكتسبات العلوم والتقانة في ميدان الاتصالات .

وهي التتويج التاريخي لتجربة مديدة من السيطرة بدأت منذ انطلاق عمليات الغزو الاستعماري منذ قرون ، وحققت نجاحات كبيرة في إلحاق التصفية والمسخ بثقافات جنوبية عديدة ، وخاصة في أفريقيا وأمريكا الشمالية والوسطى والجنوبية)[1] .

لكن السؤال المطروح : هل العولمة قَدَرٌ حتميٌّ ؟!

وبالتالي ، هل علينا أن نستسلم أمام العولمة وأنواعها ؟ وهل علينا الاعتراف بأنه لاحول ولا قوة لنا ولا حيلة أمام تلكم الظاهرة ؟

---

(١) في مجلة المستقبل العربي ، عدد (٢٢٩) ٣/١٩٩٨م ، صفحات (٩١ـ٩٣) .

وهل يمكن لأحدٍ في هذه الأيام أن يعيش خارج اللعبة ؟ وهل بيد أحد الخيار أن يشارك بمظاهر العولمة أم يرفضها ؟

وهل كُتب على الدول الفقيرة أن تكون أكثر تهميشاً مما هي عليه في هذه الأيام ؟

وهل نحن أمام عهد صياغة ثقافية عالمية ؟ !

ثم ماذا علينا أن نفعل أمام هذه الرأسمالية المعولمة ، والتي تعتمد على الشركات متعددة الجنسية : والتي تتمركز في أماكن ثلاثة ، هي : الولايات المتحدة الأمريكية ، والاتحاد الأوروبي ، واليابان .

والتي تهيمن على اقتصاد العالم : حيث تستخدم هذه الشركات متعددة الجنسيات (٣٥) مليون عامل ، وبلغت أرباحها ١٩٩٥م (٣٢٣ر٤) مليار دولار . . . ، فمن يستطيع الوقوف أمام ذلك كله ؟!

إذن :

لابد من التمييز بين العولمة وبين العالمية ، وذلك من خلال التأكيد على أن العالمية تعني الانفتاح على كل الثقافات ، والاعتراف بخصوصيات كل بلد ، أما العولمة فتعني نفي الآخر واختراقه ثقافياً و . . . !!

ولابد من التأكيد على أن العولمة ـ بكل أشكالها ـ ليست إلا ستاراً وقناعاً تختفي خلفه الرأسمالية ومن يدور في فلكها ، بحيث أن العولمة تقدم للناس ظاهراً جميلاً ، وتخفي وراء ذلك مشروعاً إيديولوجياً تابعاً للرأسمالية الجديدة .

وليست الظاهرة الثقافية للعولمة أحسن حالاً من العولمة الاقتصادية ، بل إنها تهدف إلى سحق الثقافات الخاصة بالشعوب لتحل محلها ثقافة الغرب وحده ، سواء طابق ذلك قول الشريعة والناس ، أم خالفه . . .

وكانت النتيجة حروباً إقليمية ، ونزاعات أهلية ، واضطرابات سياسية ، وفوضى اقتصادية ، وتسارعاً في معدلات البطالة ، وزيادة في عدد الفقراء حتى داخل الدول القوية والغنية ، حيث تؤكد الإحصائيات ما يلي :

ـ في الاتحاد الأوروبي يوجد قرابة (٥٠) مليون فقير ! !

ـ وفي الولايات المتحدة يوجد قرابة (٦٠) مليون فقير ! !

ـ بينما يملك في الولايات المتحدة ١٪ من السكان ٣٩٪ من الثروة .

ـ وبالتالي تفوق ثروة (٣٥٨) شخصاً من أصحاب المليارات الدخل السنوي لـ ٤٥٪ من السكان الأكثر فقراً في العالم ، أي (٢,٦) مليار نسمة ! !

فهل نرفض العولمة ، فننعزل عن كل ما يجري في العالم ؟ أم هل نتضامن ـ كشعوب ضعيفة وفقيرة ـ في العالم ، لنواجه ما يأتي من قبيل العولمة ؟ !

والوضع الحالي وصل إلى ما وصفه العالم (توينبي) بقوله :

(إذا كان تشابه التاريخ المعاصر للحضارة الغربية والتاريخ القديم للحضارات الأخرى ، يشمل التفاصيل التسلسلية ، فإننا اليوم على حافة هاوية تظهر حيالها الهاوية التي برزت في المجتمعات الغربية خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر كالحفرة البسيطة ، وإن فكرة كهذه كفيلة بأن تجعل أكبر فرد فينا يحس بالرعب والرهبة ، ذلك أن النهايات التي وضعت حداً للفترات المضطربة عبر التاريخ القديم ، إنما كانت قضاء مبرماً على حضارات اندثرت نهائياً ، ولم تنهض) .

تُرىٰ هل علينا نحن أيضاً أن ندفع الثمن نفسه فداءً لسلامنا ؟

إن هذا سؤال لا تستطيع شفاهنا الإجابة عنه ، لأن مصير أي حضارة حية تشكل أمراً أكثر غموضاً ، بالنسبة إلى من هم جزء منها ، من مصير حضارة ميتة) .

فما هي نتيجة هذه الصراعات والنزاعات ؟ وبالتالي إلى ماذا سيؤول الحال إذا بقي الأغنياء في حالة زيادة غنىً ، بينما الفقراء يزدادون فقراً ؟!

لقد وصل الأمر إلى حد عجيب : حيث أصبح بوسع مليارات الدولارات أن تجتاز الحدود بمجرد لمسة أصبع على أحد أزرار الحاسب الألكتروني : فقد ارتفعت الصفقات اليومية في سوق العملات من (٢٩٠) مليار دولار يومياً عام ١٩٨٦ إلى أكثر من (٧٠٠) مليار دولار عام ١٩٩٠ ، وفي عام ١٩٩٤ بلغت هذه التدفقات المالية غير الحكومية (١٣٠٠) مليار دولار يومياً!!

وفي هذا الصدد يتساءل السيد ياسين فيقول : (هل يمكن لدولة ما ـ أياً كان نظامها السياسي ـ أن تحصل على تأشيرة خروج من النظام العالمي ؟

بمعنى أن تنفلت من إساره ، وأن تبني تجربتها في التنمية بعيدة عن تشابكاته متحررة من قيوده ، أم أن هذا المطلب في حدِّ ذاته ضرب من ضروب الأوهام ، التي قد تكون أوهاماً ماركسيةً أو أوهاماً إسلامية على السواء ؟

هكذا تساءل منذ فترة الباحث الإفريقي الشهير (علي مزروعي) في مقال هام نشره في مجلة « العالم الثالث » ، وكان يناقش فيه أساساً حالة إيران في بداية ثورتها .

لقد كانت إيران في ذلك الوقت في ذروة الحماس الثوري ، والذي كشف بعد حين عن التفكير السياسي المراهق الذي صاحب الثورة ،

والذي جعل أنصارها المتشددين يندفعون في طريق الخروج من النظام العالمي ، ويظنون أنهم يمكن أن يبنوا دولة إسلامية ثورية مستقلة ، مبرأة من مساوىء الرأسمالية المعاصرة ، ومتحررة من قيود دول الاستكبار العالمي ، بل إنهم ركزوا تركيزاً شديداً على ضرورة تصدير الثورة الإسلامية للعالم ، تحت القيادة الإيرانية .

وأثبتت التجارب التاريخية أن الوهم الإيراني قد بدّدته حقائق العالم المعاصر ، والتي من شأنها أن تفرض على الدول ـ أياً كان نظامها السياسي ـ أن تشتبك من خلال تفاعل إيجابي خلاّق مع النظام العالمي بدلاً من أن تنعزل ، لأن الانعزال هو بداية طريق الموت البطيء للشعوب ، أياً كانت لغة الخطاب الثورة لقادتها ، والتي تتضمن مزاعمهم عن الانتصار على النظام الرأسمالي العالمي ، ولعل الحالة المتدهورة لكوبا ، ولكوريا الشمالية ، أمثلة حية على ما نقول ، ومعنى ذلك أن رفض النظام العالمي الرأسمالي ، وبالتالي رفض العولمة ، والتي هي في الواقع مرحلة حاسمة من مراحل تطوره الطويل ، قد يأتي من منطلقات إسلامية أو مراجع ماركسية على السواء .

إن الرفض الإسلاموي للعولمة ينطلق أساساً من موقع الدفاع عن الخصوصية الثقافية المهددة من قبل موجات العولمة المتدفقة ، والرفض الماركسوي ، يأتي من منطلق الدفاع عن التنمية المستقلة في مواجهة التبعية المفروضة من قبل مراكز العولمة الاقتصادية ، والمتمثلة أساساً في الشركات متعددة الجنسية ، والمؤسسات المالية الدولية كالبنك الدولي)[1] .

---

(١) العولمة وانعكاساتها على الوطن العربي : ١٦ـ١٧ ، ويلاحظ مدى الحملة القوية والحاقدة التي يشنها الكاتب على دولة إسلامية معاصرة!! .

إذن :

تيار الرفض للعولمة يتوقف عند بيان سلبياتها ـ الأرباح الجشعة وتحكم الشركات متعددة الجنسيات ونحو ذلك ـ لكن التركيز الحقيقي في ذلك يكون حول موضوع الخصوصية الثقافية المهددة .

فهل الأفضل : أن تكون الخصوصية الثقافية منغلقة ، أو أن تكون منفتحة على ثقافات الآخرين ؟!

لقد رجَّحنا في آخر الباب السابق أن الإسلام بثقافته الأصلية المنضبطة بالقرآن والسنّة ينفتح على كل الثقافات ، فيستفيد ويُفيد ، بحيث إنه يؤكد على أن الحكمة لا تحمل هوية ، وأن الثقافة لا يملكها أحدٌ ، فهي كالهواء ينطلق دون استئذان ، ويخطىء الذين يتصورون إمكانية غلق شعبٍ بأسره على ثقافة ما .

وخاصةً في زمن الانترنيت والفضائيات ونحو ذلك!!

من هنا فعلى المسلمين الواعين أن لا يضعوا صرعة العولمة ـ بكل أنواعها ـ في مقدمة المحرمات والممنوعات! وأن لا يتوقفوا عند السلبيات منها : وأن لا يجعلوا الهجوم عليها وِرْدَاً يومياً ! و . . . !!

إنما لابد لنا أن نتحصن بثقافاتنا الصافية ، وأن نتمترس وراء الحقائق الساطعة منها ، وأن ننطلق إلى الآخرين ونحن نرفع شعاراً قرآنياً واضحاً : ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ٦٤] .

وعلينا أن نقف والآخرين على الأرضية المشتركة ، وهي توحيد الله تعالى ، ثم ليكن لكلٍّ منا خصوصياته : خصوصياته الثقافية ،

وخصوصياته الاقتصادية ، وخصوصياته السياسية ، وخصوصياته الفكرية والإعلامية و . . . .

وبالتالي : لا أحد يملك الحقيقة بشكل مطلق ، إنما قد نملك ٤٠٪ منها ويملك الآخرون ٣٠٪ ويملك غيرهم ٢٠٪ وهكذا .

فإذا التقينا وتحاورنا . . وتنازلنا عن أنانياتنا وعصبياتنا ، وانفتحنا على الآخرين ، معنى ذلك أننا نسير في الطريق القويم الذي رسمه الله تعالى في الكتاب الخالد ، وهو يخاطب الرسول ﷺ بقوله :

﴿ . . . وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [سبأ : ٢٤] .

وفي تاريخنا السامق محطات مضيئة في هذه المجالات :

فبعد خروج الرعيل الأول من شبه الجزيرة العربية ، اختلطوا بالرومان والفرس ، وكانتا تملكان رصيداً حضارياً عظيماً ، على الرغم من الاختلافات في العقيدة ، فهناك يعبدون النار ويعظمون الملك حتى العصمة والتقديس!

وهناك يجعلون من نبي عبد بشر ، يجعلون منه رباً أو ابن الربّ!

ومع ذلك ، فقد انفتح المسلمون عليهم . . وحاوروهم . . وأقاموا الحجج عليهم ، وبينوا لهم ما يملكونه من ثقافة وعلوم .

ثم استفادوا من كل ما عندهم ، فترجموا ذلك ثم صبغوه بالإسلام ، أي استطاعوا (أسلمة علوم عصرهم) !

أجل!

إن المؤمن كالنحلة ، تنتقل من زهرةٍ إلى زهرة ، فتأخذ من هذه وتلك ، لكن في النهاية ، يخرج العسل الصافي الذي ينفع الناس ، مصداق ذلك قوله تعالى :

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل : ٦٨-٦٩] .

وهكذا فعل المسلمون مع الحضارة اليونانية ، حيث شجع العلماء وولاة أمر المسلمين في العهد العباسي ، شجعوا على ترجمة العلوم ، ثم أدخلوها في مصفاة الشريعة الإسلامية ، فأخذوا منها النافع وأهملوا كل ما فيه ضرر للعباد والبلاد .

لذلك أهملوا كل ما له علاقة بالإلحاد والشرك ، وانفتحوا على كل ما ينفع الناس ، فاستفادوا ، وأفادوا .

وهكذا في هذه الأيام ، على المسلمين أن لا ينظروا إلى مساوىء العولمة فقط ، بل عليهم التعامل معها كظاهرة لها إيجابياتها ، ولها سلبياتها .

وليس الحل في الصراخ والشتم والاتهامات ، ولا بالرفض ودفن الرؤوس في الرمال ، إنما لابد من الدراسة الواعية ، والمقارنة العلمية الدقيقة ، وقراءة ذلك كله تحت مظلة سنن الله في الآفاق والأنفس .

أما أن نستسلم أمام ذلك كله ، بحجة أننا لا نملك شيئاً أمام الاقتصاد الأمريكي والإعلام العالمي و . . . !!

فهذا مخالف لسنن الله ، وإلا ماذا كانت يملك الرسول ﷺ في بدايات الدعوة ؟ هل كان لديه وسائل إعلام متطورة ؟ وهل كان يملك ترسانات من السلاح ؟ وهل كان لديه إيديولوجيات و . . . ؟!

أبداً ، إنما كان يسير ـ خطوة خطوة ـ وكان في ذلك يردد قوله تعالى :

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران : ١٤٠] .

* * *